

صراع نفوذ بين إيران وتركيا والجهاديين يعطل التسوية السورية

مستقبل الحل السياسي متعثر بسبب تباين مصالح أطراف الصراع



مستقبل سوريا تحددته القوى المتعددة

إدلب تواجه مستقبلا مخيفا

الخاصة للسيطرة التركية المباشرة علما وأن المجالس المحلية المدعومة من تركيا في تلك المناطق ترفض تسجيل النازحين من إدلب، مما يجعلهم مقيمين غير قانونيين في بلدتهم في وقت لا يتبدد فيه حرس الحدود التركي في إطلاق النار وقتل اللاجئين الذين يحاولون العبور إلى تركيا.

ويبدو أن تركيا ترغب روسيا -من خلال وقف التصعيد في إدلب- في تحقيق مصالحها مع تركيا والحفاظ على علاقتها معها مزدهرة كما أنها تعتبر الاعتداء على إدلب سيتسبب في تفريق الآلاف من الجهاديين نحو جميع أنحاء سوريا، بعد أن تم احتواؤهم في إدلب واستجابت هيئة تحرير الشام في إدلب للضغوطات التركية التي ترفض عليها الاعتدال، ودعت الصحافيين والباحثين الأجانب إلى زيارة إدلب تحت حمايتها، وسمحت لتركيا بإنشاء مراكز مراقبة في المناطق الخاضعة لسيطرتها، على الرغم من معارضة المتشددين في صفوفها.

ويبرز أبوإيمان -وهو من قادة هيئة تحرير الشام- في حديثه لمجلة فورين بوليسي قبول دخول الأتراك إلى الأراضي السورية برغبتهم في حماية المنطقة من الانفصال الذي يستهدف سلامة السكان. وبرزت انقسامات في هيئة تحرير الشام بشأن تعاملها وخضوعها لضغوطات تركيا، ويعارض المتشددون المنتمون إلى هيئة تحرير الشام انضمام قادة الجماعة للأوامر التركية. ووصف مصطفى -وهو مقاتل في فصائل مسلح تابع لحزب التحرير- أن جماعة هيئة تحرير الشام اغتالت البعض من المنتمين إلى الحزب واعتقلت بعضهم الآخر لمعارضتهم العمل مع أطراف خارجية.

وقال مصطفى إن "قادة هيئة تحرير الشام لا يتخذون القرارات بشكل مستقل وهم مقيدون، إذا أمر القائد بالانسحاب فسيفعلون ذلك، لإرضاء الأتراك". ووصف أعضاء هيئة تحرير الشام بالمنافقين والخونة الذين يخضعون لأوامر تركية معلنا نيته الانسحاب من المعركة التي ستخوضها ضد قوات النظام. ويبدو أن تركيا ستستفيد من النفقة داخل قوات المتطرفين للضغط عليهم للموافقة على شروط وقف إطلاق النار التي رفضوها سابقا، لتتمكن من إعادة فتح الطرق المؤدية إلى حلب واللاذقية، وتوسيع دورها والفصائل التي تدعمها في المنطقة وستجبر هيئة تحرير الشام وغيرها من الفصائل الأخرى على ضمان عدم انتهاك الجماعات المتطرفة لوقف إطلاق النار.

آخر، ولم تتوقف عن ارتكاب جرائم التعذيب في سجونها. واعتبر سليمان -وهو صحافي مقيم في إدلب- خلال مقابلة أجراها مع مجلة فورين بوليسي أن كوابل الأمن الداخلي في هيئة تحرير الشام الأكثر تطرفا ويعتقلون البعض على أساس أقوال أسندت إليه كذبا وهو ما اكده اعتراف أحد المقاتلين التابعين للجماعة، ويدعى عبدالله، بكون أفراد الأمن الداخلي مكروهين.

وأمام هذا الوضع ومع تزايد الضربات العسكرية لقوات النظام السوري، يواجه سكان إدلب البالغ عددهم 3 ملايين نسمة مستقبلا محتلمين، أولهما استيلاء النظام التدريجي على المعتقل أو صفقة طويلة الأجل لوقف التصعيد لضمان حماية المنطقة الواقعة تحت سيطرة هيئة تحرير الشام، وسيؤدي الأول إلى موت الكثيرين أو سجنهم على يد قوات الأسد التي تريد الثأر فيما ستفرض الحالة الثانية نوعا جديدا من القمع الدامي.

في الأثناء، تتنازع القوى الدولية المجاورة حول مستقبلهم، فقد وافق بوتين وأردوغان وروحاني على محاولة "تهدئة التوترات" في إدلب، رغم أنهم يدعمون مجموعات مختلفة عن بعضها البعض، وتحرك قوات الأسد المدعومة من روسيا، مخترقة وقف إطلاق النار الذي أعلن في الربيع الماضي في سوتني بروسيا. ويخوف سكان إدلب من سيطرة النظام على المنطقة ولاسيما أن الكثير منهم نزحوا إلى إدلب بعد أن شنت قوات تحرير الشام هجمات سابقة على الجيوب التي يسيطر عليها المتطرفون، ويصف نظام الأسد أولئك النازحين الذين رفضوا الاستسلام له "إرهابيين" و"خونة". ويتخوف سكان المناطق التي استعادها النظام من عودة "دولة بوليسية دوانية تنفذ عمليات تدريبها مع بوميا وتجبر السكان على عادة التبليغ عن بعضهم البعض".

مستقبل مربع

تشير مجلة فورين بوليسي إلى بروز بؤابر ومؤشرات مستقبل مخيف في إدلب خاصة بعد أن شنت القوات الجوية الروسية والمليشيات التي تدرجها مع الجيش السوري في أواخر شهر أبريل، هجوما جديدا على إدلب وضواحيها، وتسعى تركيا إلى تجنب سيناريو هروب سكان إدلب في اتجاهها عبر الحدود وحتى نحو منطقة شمال حلب

واشنطن - لم يسفر اجتماع فلاديمير بوتين ورجب طيب أردوغان وحسن روحاني على مؤشرات تخص إنهاء أزمة محافظة إدلب السورية وبقي الصراع مفتوحا بين مسلحي المعارضة وقوات.

وباتت إدلب مهددة بسيئاريوهات مختلفة ستفرضها التطورات الميدانية ونتائج المعارك المسلحة بين قوات النظام السوري وعناصر هيئة تحرير الشام وسيؤدي بها الحال إما إلى الحكم الإسلامي المتشدد أو إلى الخضوع لقبضة النظام.

التغير الاستراتيجي

ذكرت مجلة فورين بوليسي، في تحليل أعدته مديرية البحث والتطوير في برنامج التعليم من أجل السلام في العراق إليزابيث تسوركوف، أن هيئة تحرير الشام -وهي الجماعة الإسلامية المتطرفة التي تسيطر على إدلب- أبدت في الأشهر الأخيرة رغبة متزايدة في التوصل إلى تسوية ترضي جميع الأطراف خاصة بعد تضييق الخناق عليها من طرف قوات الرئيس السوري بشار الأسد.

وبعد أن اندرقت هيئة تحرير الشام انهيار تنظيم الدولة الإسلامية المتشدد، غيرت سياسة استقطاب المقاتلين وبدأت في اتخاذ نهج أكثر تساهلا في استقطاب مجندين وتغيير طريقة تكوين المجموعة وذلك في وقت حقدت فيه قوات الرئيس السوري بشار الأسد مدعومة بالقوات الروسية، انتصارات على حسابها.

وخصصت هيئة تحرير الشام الآلاف من المقاتلين في صفوفها من الفصائل المهزومة ورحبت بالمقاتلين الأكثر اعتدالا الذين نزحوا من الجنوب، وهو ما استغربه بعض المجندين الجدد.

واتضح التغير الاستراتيجي لهيئة تحرير الشام في عملية التجنيد في تصريح مازن، وهو أحد المقاتلين المستقطبين ومن المدخنين الذين يخفون من كثافة لحيثهم، بقوله إنه كان يظن أن الجماعة تشبه تنظيم الدولة الإسلامية، لا بدخن منهم أحد ويرتدون الزي الإسلامي لكنه يتقن في ما بعد أنه مخطئ.

ورغم انفتاحها على المعتدلين وضمتها مقاتلين غير متطرفين، يرى سكان إدلب، الواقعة شمال غرب سوريا، أن سلوك هيئة تحرير الشام الاستبدادي لم يتغير وواصل جهاز أمنها الداخلي اختطاف المعارضين وإعدامهم من حين المنهك منذ مارس 2011.

ولعبت أزمة الجماعات المتطرفة وتباين الاستراتيجيات بين كل من إيران وتركيا دورا أساسيا في تعطيل التسوية السياسية في سوريا، حيث عملت هذه القوى على زيادة تناحر مكونات المجتمع السوري على أسس طائفية ومذهبية بحيث يستنزف بعضها بعضا، لتترك الجميع في حالة من الضعف المتوازي وكل طرف رهينة للآخر، وتستمر بالتالي حالة الانقسام فتكون هي النافذة للتوازنات بشكل يجعل مستقبل الحل السياسي رهين رؤيتها ونفوذها.

العنقودية في جماعات محدودة العدد، وتتواجد سريريا في جيوب صحراوية في شمال نهر الفرات على الحدود العراقية وفي جنوبه وفي محافظة دير الزور وريف الحسكة وأجزاء من ريف حلب والباغوز آخر معاقل داعش قبل سقوطها في مارس 2019.

ومن الممكن أن تؤهل هذه الهيكلة الجديدة الآلاف من مقاتليه لاستعادة قواهم في الأمد القريب، وربما التفكير في صدام واسع مستقبلا. ويحاول اليوم الاستفادة من محاولة إضعاف تركيا للاكتراد كقوة مركزية تتصدى لهم، حتى يتمكن من أخذ مبادرات ميدانية.

ويأتي تنظيم القاعدة كمكون ثان عابر للحدود ومنافس لتنظيم داعش من حيث القوة والعدد بعد أن عقدت "جبهة فتح الشام" تحالفا مع كل من "حركة نورالدين زنكي" و"لواء الحق" و"جبهة أنصارالدين" و"جيش السنة"، أطلق عليه "هيئة تحرير الشام" (جبهة النصرة سابقا) وظلت تتحكم في إدارة محافظة إدلب شمال غرب سوريا عبر "حكومة إنقاذ" في عام 2019.

وباتت لهذه الحكومة علاقات اقتصادية واسعة مع شبكة واسعة من التجار، وتضع يدها بشكل أساسي على تجارة الوقود عبر "شركة وتد للبتترول" التي تتحكم استيراد المشتقات النفطية عبر تركيا، كما أن سيطرتها على المعابر الحدودية مع مناطق سيطرة قوات النظام عبر معبر العيس الوحيد المفتوح في ريف حلب الغربي أو عبر معبر باب الهوى مع تركيا الذي تدخل منه كافة البضائع التركية يدر عليها أموالا طائلة.

وتتسم المجموعات المسلحة في سوريا بالتنوع الشديد، ويعد "تنظيم أحرار الشام الإسلامي" تحت قيادة أبو محمد الجولاني منافسا قويا للقاعدة في الشمال السوري، وتفوق مجموعاته 80 مجموعة، أما من حيث مرجعيته فهي تجمع بين تيارين رئيسيين، الأول سلفي جهادي، والثاني قريب من الإخوان المسلمين.

طموحات تركية وروسية

تقوم أنقرة منذ عدة سنوات بتشكيل تحالفات مرنة مع روسيا وإيران، وتسيطر قوات درع الفرات المدعومة منها على بلدة جرابلس ونواحيها، وهي نقطة دخول نهر الفرات إلى سوريا إضافة إلى منطقة الباب.

وتنتشر تركيا في 12 نقطة مراقبة بإدلب ومحيطها لتطبيق اتفاق سوتني الذي تم التوصل إليه قبل عام ونصف العام على إقامة منطقة منزوعة السلاح في المحافظة لمنع عملية عسكرية سورية واسعة، لكن هذه النقاط تواجه مازقا إذا تم حصارها من الجيش السوري أو انفصلت إحداهما عن باقي أجزاء إدلب في ظل تقدم قوات النظام.

وفي ما يخص التحركات الروسية بسوريا فهي تحركات في عدة مسارات متوازنة تجمع بين استعمال القوة العسكرية وأدوات الدبلوماسية الناعمة. وعلى الرغم من نفوذها العسكري تتجنب موسكو إلى حد الآن الصدام مع مختلف القوى الدولية والإقليمية، ووجهت جهودها إلى وضع دمشق في حظيرة مشروعاها الأوراسي لتعزيز مكانتها في المتوسط حتى لا تستطيع واشنطن والعسكر الغربي بمفردهما التحكم في أجندة المتوسط.

وعليه، فإن مستقبل التسوية السورية متعثر بسبب تباين مصالح أطراف الصراع حيث أخذ التنافس الإقليمي والدولي صراعا بالوكالة، مما يؤثر كثيرا في موقف المنظمات والفصائل المسلحة ورؤيتها تجاه عملية التسوية، وذلك في ظل استمرار ابتعاد سوريا عن الحاضنة العربية، وعليه فإن استمرار الحال على ما هو عليه فلا وعود أو بشائر تلوح في الأفق وتنبئ بنهاية الصراع وعودة الاستقرار إلى هذا البلد المنهك منذ مارس 2011.

د. حسن مصدق
أستاذ في جامعة
فانسين باريس 8

أوشكت الأزمة السورية على الدخول في عامها التاسع، ومع ذلك لم تحمل أي بديل جديد في أدوار اللاعبين الإقليميين والدوليين، إلا ما خلا من مراوغة ومناورة بين الأطراف المنخرطة بالداخل السوري، تعمل بالأساس على تأسيس نمط من توازنات الضعف والمزيد من الشرخ في البيت السوري.

وضاعف الصراع الإقليمي اقتصاديات الحرب وازداد تناحر مكونات المجتمع السوري على أسس طائفية ومذهبية، بحيث يستنزف بعضها بعضا، مما جعل الجميع في حالة من الضعف المتوازي وكل طرف رهينة للآخر، وعلى نحو تلعب فيه القوى الإقليمية والدولية دور تأمين حالة الانقسام وضبط التوازنات دون البحث عن أي تسوية سياسية حقيقية. ومن المتوقع أن تتمر ديناميكية تناقضات المشهد السوري الداخلي

والخارجي بتحويلات رئيسية في عام 2020، من خلال تشابك التفاعلات الأمنية والسياسية الحالية وما تقوم به روسيا وإيران وتركيا منذ مدة بترسيم مناطق خفض الصراع في أربع مناطق أملا في تحديد سيناريوهات جديدة للخارطة السورية وفرضها في علاقة النظام بقوى المعارضة للتأثير في مسار أي تسوية قادمة؛ تقع المنطقة الأولى في شمال سوريا، وتشتمل ريف إدلب والمناطق المتاخمة، وشمال شرقي ريف اللاذقية، وغربي ريف حلب، وشمال ريف حماة.

أما المنطقة الثانية فتتمتد من شمالي ريف حمص، وتشتمل مدينتي الرستن، وتلبيسة، والمناطق المحاذية، فيما تشمل المنطقة الثالثة الغوطة الشرقية وريف دمشق، بينما المنطقة الرابعة تشمل جنوب سوريا والحدود الأردنية في ريف درعا والقنيطرة.

استمرار الأزمة مرتبط بأزمة

التنظيمات المسلحة في سوريا، وتحديات التمدد التركي والإيراني وتهديدات روسيا للسيادة السورية

ميدانيا، استطاع النظام السوري تقليم أظافر المعارضة في الكثير من هذه المناطق وتعزيز استعادته لأراضٍ فقدتها في السابق، إلا أن منطقة إدلب التي تضم أكثر من 3.5 مليون مدني تعد إحدى أكبر الحلقات التي ستحتب مستقبل المواجهة المباشرة وغير المباشرة في سوريا، وذلك إما عبر الاتجاه نحو الدخول في تسويات سياسية عبر دينامية

واتفاقيات مصالحة بعد أن ثبت للجميع أنه ليس بإمكان أي قطب إقليمي أو دولي أن يلعب بمفرده دورا قطبيا مركزيا لوحده في سوريا، أو الاتجاه نحو نقل الاتجاهات المتصارعة الحالية إلى كيانات وقضاعات أخرى في الشرق الأوسط.

وهذا يعني أن استمرار الأزمة مرتبط بأزمة التنظيمات المسلحة في سوريا، وتحديات التمدد التركي والإيراني وتهديدات روسيا للسيادة السورية.

وباتت الميليشيات الموالية لإيران تلعب دورا مهما في الصراع، كما أن التنظيمات الجهادية العابرة للحدود استفادت من تناقض استراتيجيات القوى الكبرى والإقليمية.

نفوذ الحركات الجهادية

واقع حال تنظيم الدولة الإسلامية بالرغم من الضربات الموجعة التي تلقاها، لا يعني التسليم بنهاية التنظيم ولا الاختفاء بين عشية وضحاها، بل تحول تنظيميا إلى تبني هيكل الخلايا